

ثورة الشيخ بوعمامة

(1908-1881)

ابراهيم مياسي
-جامعة الجزائر (معهد التاريخ)
الجزائر -1996
دورة ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي
للتوسع الإستعماري

تقديم :

ما كادت جذوة ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة تخبو، حتى ظهرت ثورة أخرى أكثر مراسا وأشد عنفا وهي المتمثلة في ثورة سيدي الشيخ الثانية أو ثورة الشيخ بوعمامة.

فبعد آخر المعارك التي خاضها فرع الشراقة ضد الإحتلال والتواجد الفرنسي، تشتت العائلة وهاجر أغلب أفرادها الى المغرب الأقصى وانتقل البعض الآخر الى الجنوب ضواحي القليعة (المنيعة).

لكن ذلك لم يُشكل فراغا سياسيا بالمنطقة، إذ سرعان ما ظهر على مسرح الأحداث الفرع الغربي لأولاد سيدي الشيخ، فلم تكد تنتهي السنوات الثلاث (1878-1880)، والتي هي الهدوء التي يسبق العاصفة حتى ظهر زعيم من الفرع الغرابة متحديا أولاد عمومية الشراقة الفارين من جهة وصامدا أمام تسلط وتجبر القوات الفرنسية من جهة أخرى، وهذا الزعيم هو الشيخ بوعمامة.

ترجمة للشيخ بوعمامة:

هو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن محمد بن ابراهيم ابن التاج والمشهور بأبي عمامة، وهو سليل عائلة أولاد الحرمة (1) التي تنحدر من أولاد سيدي التاج الإبن الثالث عشر للجد الأول سيدي الشيخ، وقد انحاز هذا الفرع في التراب المغربي بمقتضى معاهدة لالة مغنية ليوم 18 مارس 1845 لذلك يطلق عليهم أولاد سيدي الشيخ الغرابة.

ولد بوعمامة حوالي 1838 أو 1840 بفيقيق في قصر الحمام الفوقاني (2) وتجمع الوثائق التاريخية على أنه غادر فيقيق نهائيا عام 1875 ليستقر بمغرار التحتاني الذي أسس به زاوية على غرار زاوية أجداده (3) واتبع حياة الزهد والنسك حيث يقضي معظم أوقاته في التعبد أو تعليم القرآن أو دراسة المسائل الفقهية التي تطرح عليه.

ولهذا النشاط الحثيث والحيوية المتزايدة، حظي الشيخ بوعمام بإحترام وتقدير كبيرين من كل أقرابه وأتباعه، واعتبر عندهم بأنه من أولياء الصالحين وبذلك أصبح زعيمهم الروحي الذي ورث البركة عن أجداده، فازدادت شهرته ونفوذه في المنطقة، فتكاثر عدد أتباعه وموريده وإخوانه، مما أثار إنتباه السلطات الفرنسية التي إنزعجت من هذا النشاط المتزايد، وأصبحت تتحدث عنه في تقاريرها، حيث إهتمت بنفوذه ومركزه في أوساط القبائل الجزائرية وخاصة الصحراوية منها.. فتكاثر عدد زواره لتقديم الزيارة (الهدايا) منهم قبائل الترافي وحميان وأولاد زياد والأغواط والأحرار وغيرهم، وقد وعدهم بوعمامة بقرب الخلاص من الإحتلال الفرنسي(4) وأنه سيشعل نار الحرب (الثورة) ضده ويخلص البلاد من ظلمه.

وقد أشيع في الأوساط الشعبية أن بوعمامة ورجاله سوف يطردون الفرنسيين من البلاد قبل حلول فصل الصيف القادم (5) عام 1881 م.

أسباب الثورة:

لقد تضافرت عدة أسباب مترابطة وجملة من العوامل المتداخلة، أسرعت بتفجير الثورة، نورد فيما يلي أهمها:

1- لا شك أن في مقدمة الأسباب هو رفض الشعب الجزائري للإحتلال الفرنسي، ومقاومة هذا الدخيل كلما حانت له الفرصة.

2- تشير بعض الدراسات الفرنسية الى أن أسباب الثورة ترجع بالدرجة الأولى الى إنتشار المجاعة في أوساط الأهالي، وذلك نظرا للنظام الإستعماري وأسلوبه في الجزائر والذي يقتضي أن يحطم ويخذل الإنسان العربي (6) ويحط من قيمته في بلاده. وقد حرمه الإستعمار من جميع وسائل الرزق حتى تسهل عملية اخضاعه للهيمنة الفرنسية وهكذا تتم السيطرة على السكان ثم الإحتلال الكامل للبلاد.

3- فشل البعثة الرسمية لدراسة مشروع مد الخط الحديدي عبر الصحراء (Transsaharien) في الجنوب الغربي لإقليم وهران خلال سنة 1879، فقد أجبرت البعثة على العودة على أعقابها بعدما تحرش بها سكان قرية تيوت لذلك عزمت الحكومة الإستعمارية على إقامة مركز عسكري للمراقبة في قصر تيوت (7) الذي هو بجوار المغرار التحتاني مقر زاوية بوعمامة وقد أحدث هذا النبأ قلق متزايد لدى بوعمامة والقبائل الصحراوية التي ترفض السيطرة الفرنسية عليها، فأشعلت نار الثورة في وجه المحتل لتدافع عن مجال نفوذها بقيادة أولاد سيدي الشيخ وخاصة الفرع الأصغر الذي أصر بأن يلعب دور الزعامة بقيادة بوعمامة في هذه المرحلة من المقاومة.

كما أن فشل بعثة العقيد فلاترس (FLATTERS) لنفس الغرض في الصحراء الشرقية الجزائرية، وإبادة أفرادها، خاصة الفرنسيين منها، من طرف قبائل الطوارق، قد أثار غيظ الإستعماريين الفرنسيين بالجزائر، وأرادوا الإنتقام من الشعب الجزائري، فاغتنموا فرصة اشتعال ثورة بوعمامة لتنفيذ أغراضهم.

4- استياء وتدمير القبائل الصحراوية، وضم قبائل جبال القصور، خاصة قبائل أفلوا والبيض التي منعت من التنقل بمواشيها الى الجنوب خلال موسم الترحال وذلك في فصلي شتاء (1879-1880) و(1880-1881)، مما أدى الى موت مواشيها بأعداد كبيرة من شدة البرودة السائدة بتلك المنطقة حيث بلغت نسبة الخسائر التي لحقت مواشي دائرة أفلو وحدها، والمقدر بثلاثمائة رأس 80٪ (37٪ في سنة 1879 - 1880، و43٪ لسنة 1880-1881) (8) ويرجع السكان هذه الخسائر الى سوء تصرف الإدارة الإستعمارية التي يجب تخليص البلاد والعباد من شرها ورأت في تباشير الثورة، وفي أخبار الجهاد ضد الفرنسيين أملا في الخلاص من القيود المفروضة عليها.

5- بالإضافة الى الأسباب الداخلية، هناك أسباب خارجية أذكت شعلة الثورة وهي خاصة غزو فرنسا للقطر التونسي الشقيق في مطلع سنة 1881 والحوادث التي أعقبت هذا الإحتلال والتي كان لها وقع وصدى عند بوعمامة ورفاقه، وخاصة بعد أن تحول جزء كبير من الجيش الفرنسي المرابط في الناحية الوهرانية الى تونس (9) ليساهم في الحملة ضدها.

6- إن الدعوة السنوية المنتشرة عبر الصحراء والتي ترمي الى مقاومة الإحتلال الأوربي للبلاذ الإسلامية، قد وصلت الى بوعمامة عن طريق مقدمها في عين صالح الحاج المهدي ولد باجودة، وكان لهذه الدعوة الدور الهام في تشجيع بوعمامة ورجاله على الوقوف في وجه الإستعمار الفرنسي والتصدي لتوسعاته في المنطقة.

7- كان لدعوة جمال الدين الأفغاني، وحركة السلطان عبد الحميد العثماني، الداعيتين الى جمع شمل المسلمين في إطار الخلافة الإسلامية تأثير في نفس بوعمامة بإعتباره رجل علم ودين متحمس وصاحب زاوية ينشد هو الآخر إصلاح المجتمع الإسلامي إنطلاق من الجزائر، وهذا الإصلاح يتطلب مقاومة السيطرة الأوربية على البلدان العربية(10)

8- أما السبب المباشر للثورة فيتمثل في مقتل ضابط فرنسي برتبة ملازم أول وهو "وانبيرونر" (WEINBRENNER) نائب رئيس المكتب العربي لمدينة البيض يوم 22 أفريل 1881، مع أربعة صبايحية من حراسه حينما حاول إيقاف نشاط بوعمامة واعتقال مبعوثيه لدى الجرامة وهما الطيب بن الجرمانى ومرزوق السروري(11).

مراحل الثورة:

بعد أن تضافرت تلك الأسباب وغيرها اندلعت الثورة، فقد أجب الشيخ بوعمامة على إشعال فتيل الثورة، حتى وإن كان ذلك قبل موسم الحصاد لأن الأهالي قد نفذ صبرهم، حيث إلتزموا بتعليمات الشيخ التي أبلغهم بها منذ بداية شهر أفريل والمتتمثلة أساسا في جمع السلاح والذخيرة والمؤن، لأن ساعة الخلاص قد إقترت.

وقد حذر العميل الخائن أحمد ولد القاضي باش آغا بفرندة السلطات الفرنسية بتحركات بوعمامة منذ 15 أفريل 1881، حيث قدم الى القائد العسكري للناحية تقاريره التي تحتوي على أخبار بوعمامة التي جمعها من قبل عيون المنتشرة حول زاويته.

ورغم ذلك فإن الحاكم العام للجزائر الجنرال آلبير قريفي (A.Grevy) لم يأمر بإيقاف الشيخ بوعمامة لأنه قد صرح من قبل بأن عهد الثورات قد ولى في الجزائر، (12) وقد اطمأنت السلطات الفرنسية (13) من جانب تحركات بوعمامة، ولكنه فاجأهم بإندلاع الثورة، والتي مرت بمرحلتين أساسيتين وهما :

أ- المرحلة الأولى : 1881- 1883:

استنفر الشيخ بوعمامة جمع القبائل الصحراوية بعد أن أرسل إليهم المبعوثين يحملون لهم النفير ويدعوهم للتعبئة وحرص الإمكانيات، كجمع المون وتهيئة السلاح والذخيرة وذلك عن طريق مقاديم الطريقة المنتشرين عبر كل من قبائل ترافي ورزاينة والأحرار وفرندة وتيارت(14) وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى قبائل عمور وحميان والشعانية، فضلا عن وعد أولاد سيدي الشيخ الغرابة بإرسال المدد والدعم أثناء قيام الثورة.

واستطاع الشيخ بوعمامة في وقت قصير أن يجمع حوالي ألفين وثلاثمائة (2300) جندي بين فرسان ومشاة (15) موزعين كما يلي:

- | | |
|-------------------------|-------------------------------|
| 700 بين فارس ومشاة | 1- قبائل طرافي |
| 180 بين فارس ومشاة | 2- أولاد زياد |
| 160 بين فارس ومشاة | 3- الحرار |
| 250 بين فارس ومشاة | 4- أولاد سيدي الشيخ (الغرابة) |
| 100 بين فارس ومشاة | 5- مغرار |
| 170 بين فارس ومشاة | 6- أولاد عمور |
| 50 بين فارس ومشاة | 7- أولاد سيدي التاج |
| 500 من المشاة | 8- سكان القصور الجنوبية |
| 190 بين فارس ومشاة (16) | 9- من قبائل أخرى |

اغتنم الشيخ بوعمامة فرصة غياب الجيش الفرنسي المرابط بالمنطقة الوهرانية، للمشاركة في الحملة عبر القطر التونسي الشقيق (أفريل 1881). فأعلن الجهاد المقدس، وحث بعض القبائل على الجهاد والإنفصال عن السلطات الفرنسية، وتم أول لقاء بين المجاهدين والقوات الإستعمارية يوم 27 أفريل 1881 بموقعة سفيسيقة جنوب عين الصفراء أسفرت المعركة على إنهزام الجيش الفرنسي المدعم "بالقوم" وترك على الميدان خمسة قتلى ومنهم على الخصوص قائد المعاليف، وكذلك أخ القائد الساسي قائد الرزاينة (17).

أسرعت السلطات العسكرية الفرنسية بتنظيم صفوفها وأرصدت طابورا في منطقة طقاروا ليواجه زحف الثورة خلال الأيام الأخيرة من شهر أفريل، ويضم هذا الطابور القوات المسلحة التالية:

1- ثلاثة فيالق من المشاة (الأول من الفرقة الثانية من الزواف والثاني من اللفييف الأجنبي والثالث من القسم الثاني رماة) تحت قيادة العقيد سوينة (SWINEY) من الفرقة الثانية زواف.

2- أربع سرايا من الفرقة الرابعة لقناصة إفريقيا تحت قيادة العقيد اينوسنتي (INNOCENTI) قائد هذا الفوج.

3- فرقة مدفعية

4- فرق الخدمات المختلفة المساعدة.

5- الفرق الثلاث من "قوم" سعيدة وفرندة وتيارت

(1200 حصان) يقود الفرقتين الأوليتين الأغا قدور ولد عدة ويقود فرقة تيارت الأغا الحاج قدور صحراوي.

وأخيرا قافلة من ألفين وخمسمائة جمل يقودها ستمائة جزائري، وأخذ قيادة هذه القرق الجنرال كولينيون دانسي (Collignon d Ancy) قائد الشعبية العسكرية لمعسكر. إلا أنه لم يحتفظ بالقيادة إلا أيام قليلة نظرا لتدهور صحته ودخوله مستشفى البيض يوم 9 ماي 1881 فعوضه العقيد اينوسنتي.

واصل الطابور سيره يوم 14 ماي متوجها نحو إقليم مفرار، مركز تجمع الثوار، فوقع الاحتدام الحاسم بين المجاهدين والقوات الفرنسية يوم 19 ماي 1881 في معركة طاحنة بموقعة المويلك وهو ميدان فسيح يقدر عرضه بثلاثة كيلومترات متكون من تلين متوازيين تقريبا (18)، وهو يقع قرب قصور الشلالة بجبال قصور (19).

كانت معركة عنيفة إلتحمت فيها الصفوف واشتد القتال بين الطرفين فتعالت أصوات الجيش الإسلامي بالتهليل والتكبير ساهمت في زعزعة مقدمة العدو، وتخلخل مركزهم على الميدان وتسرب الى قلوبهم الرعب، فاستغل الثوار هذا التفكك في تنظيمهم العسكري، وتحذوا المدفعية بأقدام وشجاعة كبيرتين، وشل فاعليتها، فديت

الفوضى والذعر في صفوف الجيش الفرنسي فارتد على أعقابيه منهزماً، وبذلك تمكن الثوار من إفتكاك النصر رغم تفوق العدو عدداً وعدة(20).

وقد تضاربت التقارير العسكرية حول نتائج هذه المعركة وخسائر الفريقين، فمنها ما تقول أن الثوار قد تركوا أكثر من ثلاثمائة قتيل في الميدان(21) في حين تقول مصادر أخرى أن الخسائر الفرنسية قدرت بستين قتيل (60) واثنين وعشرين جريحاً، مقابل مئتي شهيد (22) وقد قدرها العقيد اينوسنتي في تقريره الى وزير الحربية الفرنسي بسبعة وثلاثين (37) قتيلاً وستة عشر جريحاً من بينهم ضابط وأربع مفقودين من الجانب الفرنسي، في حين قدر عدد ضحايا الشيخ بوعمامة بما يقارب ثلاثمائة قتيل.

أما الجريدة الرسمية "المشير" الصادرة بالفرنسية، فقد علقت على هذه المعركة، وإعتبرتها إنتصاراً للإحتلال الفرنسي ولكنها كلفتها سبعة وثلاثين قتيلاً وستة عشر جريحاً، منهم الضابط لانبييري (LANEYRIE) (23).

وبعد هذه المعركة عملت السلطة الفرنسية على التقليل من شأن بوعمامة واتباعه، وكلفت قاضي البيض بإصدار فتوى تعتبر قبحها الثوار مجرد خارجين عن القانون، وقد رد عليه الشاعر الشعبي محمد بلخير فيما بعد بقصيدة طويلة، نورد منها بعض الأبيات (24).

مقراني نبكي الأجرح مهولين بي فرقت وطني وعز الأوطان
رانا ضروك راس النجوع متنزهين ما قعدوا في الذل إلا أصحاب بوران
البي يبغي الجنة يضاد الكافرين والي ابغي الهناء ابغي التميزان
قولوا لعطاء الله واش كلفك يا حزين ولاه تشمت في الي مالداهم قران
لعبت بيك الدينا أيامها فاييتين ما خير انتاء والا اكلاب رحمان
ويقول أيضا:

أحنا مجاهدين ما هو قول ضعيف تبعنا ما قال ربي في القرآن
واحنا فزنا على العرب جيد واشريف وافرح بنا الهاشمي شارع الأديان

مات منا أحداش فراسين الحيف متين ونصف بين كفرة واهزان
واحنا بنا الناس تهترف اتهتريف واشوايعنا من الدزاير للسودان
- ثم يختم قصيدته بالأبيات التالية:
الى ما نافع النبي ما عنده نيف محمد صاحب الشفاعة والغفران
من علم الأعباد بأيام التعريف فرض الصلاة والزكاة وشهر رمضان
والطامع فيك يا الله ما هوش اشخيف كذا من حد تنصره يصبح سلطان
رجال الله من توات الى سطيف رضا عن الشيخ سقام الفرسان

وهكذا أوضح الشاعر في هذه القصيدة أن المجاهدين أفضل وأشرف من الذين انضموا الى الجيش الفرنسي وحاربوا بجانب الضابط بوران خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864، كما عاتب الشاعر محمد بلخير قاضي البيض عطاء إليه على ما صدر منه للحط من مكانة الشيخ بوعمامة واتباعه، رغم أن الله سبحانه وتعالى والرسول عليه أفضل الصلاة وأبهى السلام مع المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لرفع راية الإسلام وتحرير الوطن لذلك قد بارك جهادتهم وأصبح سلاحهم أقوى وأنجح من سلاح العدو، فكتب لهم النصر واستشهد إلا احدي عشر فارسا، بينما العدو قتل منه أكثر من مائتي كافر وخائن وهذا بفضل الله ورضوانه عن الشيخ وبركة رجال الله من توات الى سطيف.

ويظهر من هذه القصيدة أيضا أن معنويات المجاهدين مرتفعة، وأنهم قد انتصروا في معاركهم ضد الكفار، بينما اعتبرت فرنسا معركة "المويلك" هزيمة لبوعمامة وانتصار للجيش الفرنسي الذي انتقم لإغتيال الملازم "وانبرونر" من جهة ودعم نفوذه في الجنوب الوهراني من جهة أخرى.

وتوصلت القوات الفرنسية الى هذه النتائج حسب زعمها الى الدور البارز الذي قام به الجنرال سيرى (CEREZ)* قائد الناحية الوهرانية حيث نظم أربع طوابير للحفاظ على المناطق التالية من الناحية الوهرانية ودفع بطابور سعيدة داخل الأهالي المتمردين، كما أشادت السلطات الفرنسية أيضا بدور العقيد اينوسنتي وجنوده الذين تلقوا التهنة والتعظيم من قبل وزير الحربية ورئيس الجمهورية (25).

ولكن الأحداث التي سجلت بعد هذه المعركة تبين عكس ما جاء في التقارير العسكرية الفرنسية، ذلك أن هذه الموقعة تعتبر انتصارا لبوعمامة ورجاله بدليل أن الجيش الفرنسي أصبح يتخوف من مواجهة بوعمامة ويتفاداه كلما أمكن ذلك وأن العقيد اينوستي قد أرغم بعد المعركة الى التوجه نحو الشمال أي الى خيضر هروبا من بوعمامة، ويظهر أن عزله - فيما بعد- كان بسبب هزيمته أمام بوعمامة.

ظل بوعمامة طيلة هذه المدة سيد الموقف وقد توجه الى الأبيض سيد الشيخ للإستعداد والتهيئة للمسيرة الطويلة التي حيرت الجيش الفرنسي وجعلته يتيه في تلك الفيافي بدون دليل. وقد نسج حول هذه المسيرة الكثير من الأساطير والغيبيات، مثل أن "بركة" سيدي الشيخ بوعمامة جعلته يسبق القوات الفرنسية، ويمر بجانبها أحيانا ولم تره، ودامت هذه المسيرة حوالي ثلاثة وعشرين يوما من 30 ماي الى 21 جوان 1881. وكانت هذه المسيرة نحو الشمال مرورا بالببيض وستين ثم سيدي عبد الرحمان وعيون البرانس ليعود ثانية الى بوسمغون في الجنوب قاطعا الخط الرابط بين بوقطوب المشربة عين الصفراء، وقطع خلالها ما يقارب السبعمئة وثلاثين كيلومتر، حيث برهن بوعمامة مرة أخرى عن تفوقه على الطوابير التي ترصدته من أجل القضاء عليه وعرقلة مسيرته ولكنها لم تستطع إيقافه أو مواجهته وهذا خلافا لما روجته الأوساط الإستعمارية بأنها لم تره، وهذا غير معقول إذ كيف يمكن لجيش جرار يمر بجانب العدو بدون أن يراه أو يسمع ضجيجيه؟؟

قام الثوار خلال هذه المسيرة بقطع خطوط التلغراف الرابط ما بين فرندة والببيض (26) ومهاجمة مراكز الشركة الفرنسية - الجزائرية للحلفاء، وقتل العديد من العمال الإسبان الذين يشتغلون بهذه الشركة، كما أحرقوا وأتلفوا الكثير من العتاد (27) وذلك من أجل تقويض أركان الإستعمار واستغلاله لخيرات البلاد بكل نهم، كما استولوا أيضا على قطعان كثيرة لبعض القبائل الموالية للفرنسيين، ولذلك اتخذت السلطات العليا الفرنسية، إجراءات حازمة وسريعة من أجل حماية المناطق التالية من الثوار الزاحفين نحو الشمال، فركزت أربعة طوابير قوية في النقاط التالية:

- رأس الماء (العقيد جانين "JANIN")

- خضير (العقيد زويناي "ZWINEY")

- تيارات (العقيد برونثير "BRUNETIERE")

- البيض (النقيب تادييو "TADIEU") في انتظار وصول العقيد دي نيقريه " De NEGRIER" (28).

- فرصت فرقة العقيد برونثير لحراسة عين مدرسية، كما غادر الجنرال ديتري (DETRIE) يوم 4 جوان 1881 خضير مع فرقة اينوسنتي سابقا بعد تنظيمها من جديد لتصل يوم 7 الى خضراء ويوم 9 الى الترف وهو يلاحق بوعمامة ولم يتمكن في هذا التاريخ من الوصول اليه، وقد كلف العقيد ملارية (MALARET) بحراسة ممر خضير، أما طابور جانين فمهمته المحافظة على المنطقة الممتدة ما بين بوقرن والعريشة (29).

والجدير بالذكر أن إنتصارات بوعمامة، جعلت عدة قبائل من المنطقة تنضم اليه الواحدة تلوى الأخرى منها قبائل الأغواط الأكسل* والتي وضعتها فرنسا تحت قيادة الدين العموري آغا أقلو فثارت وحاولت الإنضمام الى الثورة لتشارك في هجوم فرندة مع بوعمامة، لكنها تعرضت لهجوم من طرف قوم أحرار تيارت بقيادة الآغا الحاج قدور الصحراوي يوم 14 جوان 1881 بواد خروف، فاضطرت الى الرجوع على أعقابها فتعرضت مرة أخرى يوم 16 جوان الى هجوم قبائل ارباع الأغواط تحت قيادة سي باحوس بن قدور، المدعم من طرف الرائد (BELIN) مع أربع فرق خيالة فكانت معركة ضارية خسر فيها الأغواط الأكسل مائة وخمسة (105) قتيلًا، واشتهرت هذه الواقعة الشنعاء بين الأشقاء بموقعة "قارة الغشوى" والتي تقع على بعد عشرين كيلومتر شمال شرق استيتان.

هذا وقد دون الشاعر محمد بلخير وقائع هذه المعركة في قصيدة من الشعر الملحون (الشعبي) منها:

دبر علي يا صاحب التدبير درلي في القسمة الوافية عودي

يوم في قارة الغشوى نهار كبير كاملين ثلث ضربات في عودي

ضرب نطح من الرقبة لحد الدير عادم بالجراح باليمنى يردي (30)

هكذا إتجأت السلطات الفرنسية الى استعمال جميع الوسائل لتحطيم الثورة كتحريض القبائل والأعراش فيما بينها، كما سارعت بإرجاع جزء من قوتها التي إشتراك في إحتلال تونس.

واضطرت أيضا الى التعجيل بإكمال الخط الحديدي بين آرزو - سعيدة لنقل المؤن لسعيدة ورغم هذه التحركات والإستعدادات فإن الشيخ بوعمامة بقي سيد الموقف طيلة فصل الصيف الحار جدا ، واكتفى الفرنسيون بالدفاع فقط.

ولمواجهة انتصارات بوعمامة المتتالية، قامت السلطات الفرنسية بتحركات سريعة تمثلت في إرسال قوات نحو الجنوب الغرب من أجل تطويق الثورة والقضاء عليها بالتالي التوسع في المنطقة وبسط نفوذها على كل قصور الجنوب الغربي الجزائري.

ورمز لهذه القوات بالحروف أ-ب-ج. وهي

- القوة الأولى (أ) كانت تحت قيادة الضابط لويس (Louis) حاكم تلمسان

مشكلة من :

1 - بطرية من المدفعية من ست قطع.

2 - ثلاثة سرايا من الفرسان

3 - فرقة من "القوم" مكونة من 300 فارس من قطاع تلمسان.

4 - ثلاث مجموعات من المشاة تابعة للزواف

5 - ثلاثة آلاف جمل محملة بالمؤن والذخيرة.

- أما القوة الثانية (ب) كانت تحت قيادة الجنرال كلونيو Colonieu مكونة من:

1 - بطرية من أربع قطع.

2- أربع فرق من الفرسان

3- فرقة من القوم "مكونة من أربعمئة (400) فارس من قطاع معسكر.

4- مجموعتان من المشاة

5- مئتان وخمسون (250) جمل محمل بالذخيرة والمؤن.

- القوة الثالثة والتي رمز لها بالحرف (ج) تحت قيادة العقيد دي نيقريه.

ومكونة من :

- 1- بطرية مكونة من ست قطع.
- 2 - فرقتان من الفرسان.
- 3 - فرقة من "القوم" تعدادها 300 فارس من قطاع البيض.
- 4 - ثلاث مجموعات من المشاة تابعة للفياف الأجنبي.
- 5 - ثلاثمائة (300) جمل محملة بالمؤن والذخيرة (31).

وقد كلف العقيد دي نيقريه بمهمة معاينة القبائل التي شاركت في الثورة، ونسف زاوية سيدي الشيخ الكبير المتواجدة بقرية الأبيض سيدي الشيخ، وقبل وصوله الى هذا الهدف كانت قوته قد إقترفت أعمال إجرامية بشعة ضد السكان العزل خاصة أهالي الطرافي بضواحي البيض وأهالي الريوات وذلك يوم 9 أوت، وهاجم أيضا سكان الشلالة الظهرانية وطالب من قائدهم تسليم كل الذين شاركوا في معركة "المويك" للإنتقام منهم ومضادة أسلحتهم من بنادق ومسدسات وسيوف.

وفي 15 أوت 1881 وصلت القوات الفرنسية تحت قيادة العقيد دي نيقريه الى قصور الأبيض سيدي الشيخ الأربعة حيث قام بأعمال شنيعة يندى لها جبين الإنسانية، فقد وصل به البغض والإستهتار والعجرفة الى تفجير قبة سيدي الشيخ (32) كلية ونش قبره الذي مر عليه حوالي قرنين ونصف، وكان يهدف من وراء ذلك الإستهزاء من الرموز الروحية التي تدفع وتحث السكان على الثورة والمقاومة والدفاع عن حمى الوطن والدين، وتشتيت وحدة الأهالي الملتفين حول الزاوية التي تمثل النواة الدينية والسياسية لهم.

كذلك الإنتقام من ثورة بوعمامة ومناصرية وتخويف الأهالي من مغبة التمرد والإنفضال والإلتحاق بالثورة.

وعند إنتهائه من تدمير الزاوية قام بحرق القصور الأربعة بما فيها من زرع ونخيل ومنازل ودواب وغير ذلك.

- وبعد هذه العمليات الإنتقامية قام الضابط دي نيقريه بالإلتحاق بالقوة الأولى والثانية بالمكان الذي إتفق عليه وهو منطقة عين الصفراء.

وكانت مهمة هذه القوات مراقبة الخطوط الرابطة بين مناطق الأطلس الصحراوي والقصور الجنوبية الغربية ومحاولة إخضاعها لنفوذ الإحتلال الفرنسي ومنها يحاول أن ينفذ الى الصحراء على مراحل.

وقد طالب الجنرال " سوسيه" * (Saussier) قائد الفيلق التاسع عشر في رسالة وجهها الى وزير الحربية بباريس بتاريخ 18 جويلية 1881م المزيد من المدد والدعم حتى يطمئن السكان لقوة الإحتلال الفرنسي، حيث إقترح الإجراءات التالية.

1 - تدعيم حامية البيض بكتيبة وساريتين تحت قيادة العقيد دي نيقرييه لمضايقة العدو.

2- السيطرة على مركز المشرية لما يتمتع به من إمكانيات هامة كالماء والخشب (الغابات). بالإضافة الى المراكز الأمامية بسعيدة وفرندة وعين مدرسية للتموين (1)

وهكذا يظهر أن القوات الفرنسية، لم تتمكن من السيطرة على الموقف في هذه المرحلة من الثورة، وبقيت تنتظر إنخفاض درجة الحرارة خلال فصلي الخريف والشتاء، لتتمكن من الهجوم وإسترداد نفوذها على المنطقة، ذلك أن الجنرال سوسيه قد أرسل إلى الجنرال دليباك (DELEBECQUE) قائد ناحية وهران، رسالة يطلب فيها التعليمات اللازمة للمرحلة القادمة لمواجهة أولاد سيدي الشيخ والمحافظة على المناطق التلية (33).

كما راسل أيضا وزير الحربية بباريس الجنرال فار FARRE بتاريخ 4 سبتمبر 1881 وذلك من أجل الإجابة السريعة على برقيته المؤرخة بـ 31 أوت وهذا بعدما أعلمه عن مراسلة الجنرال دليباك ومشاريعه لتونس، كذلك إعلام الوزير بإمكانية مقاطعة الجزائر حول إرسال فرقة عسكرية الى الجنوب، كما لفت إنتباه الوزير في هذه الرسالة حول قضية فيقيق وإعتصام الثوار بها ووجوب ملاحظتهم داخل ما يسمى بالتراب المغربي من طرف فرقة دليباك (34).

ففي شهري سبتمبر وأكتوبر تعرض لواء الجنرال "كولونيو" (COLONIEU)، ولواء "لويس" (LOUIS) وغيرهما من القوات الفرنسية الى هجوم الثوار قرب عين الصفراء خلف العديد من القتلى والجرحى من الطرفين.

كما قامت قوة لويس بمهمة تحطيم قصري بوعمامة وهما قصر مغرار الفوقاني ومغرار التحتاني اللذان يبتعدان عن بعضهما بمسافة تقدر بـ 12 كلم، وقد أحرق القصرين كلية ودمر زاوية بوعمامة وقتل الكثير من أهالي القصرين.

كما قامت الفرق العسكرية الفرنسية تحت قيادة الجنرال دليباك بالهجوم على السكان العزل في منطقة عمور، فقتلت العديد منهم وأحرقت خيامهم وأتلفت ذخائرهم ونهبت مواشيهم، ثم أرغمتهم على النزول من هذه المناطق الحصينة الى سهل الفجة لتبقى تحت مراقبة لواء الجنرال كولونيو بحجة أنها قد طلبت الآمان والخضوع للسلطات الفرنسية (35).

ومن التطورات الهامة التي حصلت خلال هذه الفترة إنضمام سي سليمان بن حمزة رئيس وزعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابية الى حركة بوعمامة على رأس ثلاثمائة فارس، واتجه مع رجاله الى جنوب غرب عين الصفراء ثم الى منطقة البكاكرة الحمانيين ليمارس الضغط والإرهاب والعنف على القبائل الموالية للإحتلال الفرنسي.

فأرغمت القوات الفرنسية على حماية مناصريها واضطرت أن تلاحق سيدي سليمان مع قواته خلال الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر وكل شهر ديسمبر، كما ركزت السلطات الفرنسية قواتها في عين الصفراء، وعين خليل، والعريشة، ورأس الماء ومشربة والبيض، وسبدو، والضاية، وسعيدة، وخيثر، وفرندة، لوضع شبه حاجز لحماية التل الوهراني.

وإزاء هذه الحشود الفرنسية إزداد الضغط على الثورة فإضطر الشيخ بوعمامة الى الإنسحاب متجها الى منطقة فيقيق داخل المغرب الأقصى، فقل نشاطه وتشتت أتباعه وأنصاره (36) فانضم البعض منهم الى سي قدور بن حمزة رئيس أولاد سيدي الشيخ الشراقة والذي ما زال يقاوم توسع الإحتلال الفرنسي في الجزائر، والبعض الآخر أنضوى تحت قيادة سي سليمان رئيس الغرابية لحمل مشعل الثورة، وجزء ثالث من المجاهدين رابطوا بفيقيق ونواحيها.

بقيت فرنسا خلال سنة 1882 تلاحق جيوب الثورة، وتعاقب القبائل التي وقفت في وجه توسعها وأزرت الشيخ بوعمامة في الكفاح، كما لاحقت بوعمامة نفسه في فيقيق الذي رد عليهم بهجوم عنيف يوم 16 أبريل 1882 في شط تقري، ضد البعثة

الطوبوغرافية لرسم الخرائط العسكرية، التي كانت محاطة بحامية عسكرية ضخمة، ووقعت ملحمة كبيرة سقط على إثرها العديد من القتلى وتكبّدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، ولم يتمكن الجيش الفرنسي من الإنسحاب إلا بصعوبة كبيرة.

وقد خلّدت السلطات الفرنسية هذه المعركة بنصب تذكاري لضحاياها وخاصة النقيب "باربيه" (BARBIER) والملازم "ماسون" (MASSONE) في سفح جبل عنتر قرب المشربة (37).

كان لهذه الهزيمة وقع كبير في الأوساط الإستعمارية وخاصة العسكرية منها التي منيت بالفشل الذريع أمام صمود ثورة بوعمامة التي أظهرت تفوقها مرة أخرى على القوات الفرنسية.

- وبعد ذلك عملت فرنسا على إستمالة أولاد سيدي الشيخ إليها وتفاوضت مع سي قدور بن حمزة عن طريق يوحفص لغواطي وتمّ الإتفاق بين الطرفين في شهر ماي 1883 م، وينص هذا الإتفاق على الأمور التالية :

أولا : أن تقوم السلطات الفرنسية بتجديد بناء ضريح سيدي الشيخ الذي نسفه القائد العسكري "دي نيقريه" في أوت 1881.

ثانيا : أن تقبل السلطات الفرنسية تعويضا سنويا بمبلغ ستين ألف فرنك، لسي قدور بن حمزة وأفراد عائلته عما صودر منهم منذ عام 1964.

ثالثا : تعيين سي قدور على رأس قيادة كبيرة بالبيض وتعين عدد من أفراد عائلته في مناصب أخرى تحت إشرافه.

رابعا : يقوم سي قدور وأفراد عائلته بإقناع كل أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ الموجودين بالمغرب الأقصى بالعودة الى الجزائر (38).

وفعلا، فقد تم تطبيق هذا الإتفاق، وأعيد بناء ضريح سيدي الشيخ، ثم رجع سيدي الدين بن حمزة والبن أخيه سي حمزة بن بوبكر ومعهما عائلة الأولاد سيدي الشيخ وكثير من قدماء المجاهدين ليستقروا كلهم في التراب الجزائري (39).

وما من شك أن هذا الإجراء كان يهدف الى عزل الشيخ بوعمامة وإفشال ثورته التي وقفت كحاجز صلب يمنع تسرب الإحتلال الفرنسي الى الجنوب الجزائري.

ولكن الشاعر محمد بلخير ورفيق الشيخ بوعمامة في الكفاح يبين في قصيدة طويلة تشبث الأهالي ببوعمامة لمواصلة الكفاح، نورد منها بعض المقتطفات:

يا الفارس حشمتك عيد الأخبار

واش حال القرامى رايس القوم

اليانك من البيض فرحة والأبشار

الشيخ أتبنى وإلا مازال مهدموم

هدموا قنطاس الهمة والأوقار

ولا أبقى حد على السلطان معكوم

ثم يقول:

كان شيء من الأبطال أولاد بكار

لا تخلو نجع السلطان مقسوم

بوعمامة مولى سطوة وزيار

وأباه بين أكتاب النبي المعصوم

بوعمامة يعطي تسبيح الأذكار

وبوعمامة سره للناس مفهوم

أنت مرافقي في صحراء وقفار

وشاد علامك بيدي به محروم

ثم تحتم القصيدة بما يلي :

راه ربي شاهد بالي نخلف الثار

أو عارف القلب الى من خوه مهموم

لو أنصيب أنجي لك كالجار للجار

أو تفارقني في اليقظة مع النوم (40)

- المرحلة الثانية من ثورة بوعمامة (1883-1908م)

سادة الثورة خلال هذه المرحلة (ما بين 1883-1908) فتور لم تشهده من قبل، فقد استقر الشيخ بوعمامة بمسقط رأسه الحمام الفوقاني بفيقيق التي وصلها في شهر جويلية 1883م (41) ليفكر في إعادة تنظيم ثورته للمرحلة القادمة، لذلك تخوفت السلطات الفرنسية من هذا التحرك، وبعث الجنرال "سوسيه" قائد الفييلق XIX ببرقية الى حكومته بباريس، يدعوها فيها بأن تضغط على السلطان المغربي ليطرده بوعمامة من هذه المنطقة لأنه يشكل خطرا دائما على الإستعمار الفرنسي في الجنوب الوهراني (42)، لذلك غادر بوعمامة فيقيق، ولجأ الى واحات إقليم توات، واحتمى بسكان واحة دلدول بمقاطعة تيقورارين (قورارة) مع نهاية سنة 1883م واستقر هناك الى غاية سنة 1894، إذ قام بتأسيس زاوية هناك، وشرع في تنظيم دروسا دينية ليكسب أنصارا وأتباعا جدد ليواصل بهم الجهاد ويوقف زحف التوسع الإستعماري في الجزائر، كما قام بمراسلة مختلف القبائل الصحراوية من أقصى شرق الصحراء الى غربها يحثهم على الجهاد، كما قام بتحركات سياسية تمثلت في مراسلة الحكام العسكريين الفرنسيين مثل رسالة بوعمامة الى الحاكم العسكري لدائرة غرداية يوم 26 أفريل 1888 (43) يحثه فيها على أن يسلك طريق السلم والأمن والصلح بينهما، وفي نفس الوقت راسل سي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الشراقة (44) يحذره من مغبة دسائس وتحركات المصالح الفرنسية لزرع الشقاق والعداوة بين المسلمين وداخل القبائل سواء بالمغرب الأقصى أو الجزائر ويحثه على عدم التعامل مع الكفار.

وكان لهذا النشاط صدى واسعا لدى القبائل الصحراوية وخاصة قبائل التوارق، الذين إقترحوا عليه الإنتقال اليهم ليتعاونوا فيما بينهم للجهاد ومقاومة زحف الإحتلال العسكري لوطنهم كذلك آزرتة وإنضمت اليه بعض القبائل المقيمة على الحدود الجزائرية - المغربية منها على الخصوص ذوي منيع وأولاد جرير.

وفي نفس الوقت كانت السلطات الفرنسية تعمل على إستقرار الوضع في المنطقة، بتثبيت السكان وخاصة الموالين لأولاد سيدي الشيخ، وذلك بعد نجاح الجنرال "توماسين (THOMASSIN) في مصالحة هذه العائلة الدينية، من أجل أن يسهل عليها الإنتقال الى أبعد من السهول العليا الغربية وتمديد نفوذها الى أقصى الجنوب وكذلك إنهاء حالة الحرب والإنتفاضات الدائمة التي دامت حوالي عشرين سنة (45) كما عملت أيضا على إعطاء السكان الصحراويين، نوعا من الإستقلال الذاتي، يتماشى ويتوافق مع نظام المكاتب العربية ضمن الحكم العسكري، حتى تجند منهم قوة هائلة تعتمد عليها في الإستيلاء على الصحراء، بل تكون منهم قوات سريعة الحركة تشابه حركة الثوار وتمتاز عليهم أيضا بحسن التنظيم وقوة الأسلحة الحديثة، والدعم المادي، فضلا عن قدراتهم القتالية، وسوف تكون هذه الأداة الجديدة والفعالة في أيدي السلطات الإستعمارية لتتوسع بها في الصحراء (46).

واهتمت الإدارة الفرنسية منذ سنة 1884م، بإنجاز العديد من المشاريع، بعد أن تحصلت على مساعدات مالية من مجلس النواب الفرنسي، من أجل تثبيت أقدامها في المنطقة، وهذا بعد أن ألحقت منطقة مزاب بنفوذها (47) وإيصال الخط الحديدي الى عين الصفاء. كما عملت على شق الطرق، وإقامة الجسور وربط المناطق الجنوبية الغربية ببعضها البعض حتى يسهل عليها التنقل بسرعة في حالة ما إذا قاومها السكان.

كما عملت السلطات الفرنسية على زرع الحصون والمراكز، العسكرية في مختلف المناطق بعد أن تبين لها أن حاميات البيض والأغواط وغرداية غير قادرة على حماية المناطق الجنوبية الشاسعة والمتمردة (48).

فقرر الجنرال "دليبك" في شهر مارس 1885م، إقامة مركز محصن بجنان بورزق، من أجل حماية الإتصالات بين عين الصفاء وفيقيق، وحراسة الواحات المغربية، لذلك تم إحتلاله بصفة نهائية في شهر جويلية 1885، لهذا قرر إعطاء دفعة جديد لمركز عين الصفاء بربطه بالخط الحديدي الذي وصله 1887 (49) ثم بناء حصن القليعة عام 1888م وكل ذلك من أجل مراقبة المناطق الحدودية، ورصد تحركات الشيخ بوعمامة الذي إتفق واتحد مع شريف مداغا بوادي قير ليعملا سويا على تحريض وتأليب سكان الجنوب الوهراني وعشائر بني قير وأولاد جرير (50) ضد الوجود الفرنسي بالمنطقة.

لقد إستعمل الإستعمار الفرنسي أساليب متعددة للإحتلال فمنذ سنة 1889م، لاحت في الأفق فكرة جديدة وهي إحتلال الصحراء بالطرق السلمية الهادئة، وذلك بإقامة المؤسسات الإقتصادية وإنشاء المراكز التجارية في كل من توات وتاديكالت(51)، حتى تدخل هذه المناطق في قيود التبعية الإقتصادية للإستعمار، كما بدأت تكثف من دراساتها لهذه المناطق للتعرف أكثر على جوانبها البشرية والجغرافية والمائية والإقتصادية، وقد أرسل في هذا الإطار الأستاذ "فلامون" (FLAMAND) لإتمام أبحاثه ودراساته حول الجنوب.

لكن فرنسا لم تتخل عن أسلوبها العسكري العنيف في التوسع، فأنشأت في سنة 1891م مركزا عسكريا دائما بالمنيعة إستعدادا للسطو على عين صالح ووحدات توات، التي وصفها الوالي العام للجزائر "جول قامبون" (JULES CAMBON) : إنها ملجأ للثوار، ولبوعمامة الذي إنجأ إليها بحثا عن المساعدة وتأليب القبائل ضدنا". كما عملت السلطات الفرنسية على إستمالة سي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ إليها ليساعدها على إحتلال هذه الواحات (52).

ولكن بوعمامة ما فتئ يكسب الأنصار ويحظى بثقة سكان الصحراء ويحوز على تأييدهم بإعتباره قطبا ريانيا صالحا، مما جعل كل من السلطات الفرنسية والحكومة المغربية تعملان على إكتسابه الى صغها، فتجددت محاولات فرنسا الإتصال به عن طريق المفوضية الفرنسية بطانجة سنة 1892م للتفاوض حول قضية "الآمان" ولكن بدون جدوى.(53).

ويظهر أن التنافس عليه بين الدولتين المغربية والفرنسية يدخل ضمن سياسة كل منها تجاه المناطق الصحراوية، فبينما كانت السلطات الفرنسية تسعى في إستمالة الشيخ بوعمامة الى جانبها حتى يفسح لها الطريق نحو التوسع في الصحراء، كان العرش المغربي يرمي الى تدعيمه بإعتباره مدافعا عن مجالها عبر هذه المناطق ضد الفرنسيين بإسم البلاط المغربي.

لهذا عرضت الحكومة المغربية على الشيخ بوعمامة الإنتقال الى الشمال والإستقرار بناحية فيقيق والمكوث بالقرب من زاويته بمغرار، فأصبح الشيخ بذلك بين ثلاث إختيارات هي، إما الآمان أو الإنتقال الى الشمال أو البقاء في مكانه تلبية لرغبة أهل قورارة.

وإستطاع بوعمامة أن يوفق بين الأمر الثلاث، فرد على "الأمان" برسالة ضمنها شروطه (54) الذي يعرف أنها مرفوضة، كما بدأ يتقرب من السلطان المغربي بإعتباره أقرب سلطة شرعية إسلامية في المنطقة وفي نفس الوقت بدأ في تهيئة الأرضية التي سينتقل منها الى الشمال نظرا لصعوبة المهمة وتشعب إرتباطاته، فكان التنقل بكل حذر، بطيء إستغرق حوالي أربع سنوات ظل يراوح فيها ما بين العرق الغربي الكبير ووادي الساورة.

تشير الوثائق الفرنسية بأن بوعمامة إستقر خلال 1895م بعرق مقيمن وقد رفض أن يمكث بين كل من زوا الغرابية وأولاد حرير وذوي منيع، وأنه مازال يرتاب في نوايا سي قدور بن حمزة وإن الطوارق وشعابنة الشرق تزوره بإستمرار بمقيمن.

كما أنه طالب عن طريق رسالة وجهها الى الجنرال قائد الشعبة العسكرية لعين الصفرء السماح له بأن يرسل قافلة لتتمون من الأسواق الواقعة تحت النفوذ الفرنسي (55).

ثم إستقر أخيرا بالعوج التحتاني في 26 ماي 1896 على حافة وادي زوزفانه قرب منطقة فيقيق (56)، ليتمكن من جمع إمكانياته ورص صفوفه، ويستقبل الوفود التي لبث دعوة الجهاد، كما كان يعمل على تنقية الأجواء بين العشائر المتعادية والمتنافرة، وأبعاد العناصر المشوشة لتطهير حركته الجهادية.

وفعلا فقد أبعده بوعمامة العديد من عناصر الشعابنة رغم شجاعتهم وقدراتهم القتالية ولم يبق منهم إلا بعض الخيم، ونظم صفوف جيشه الذي أصبح يتكون ممايلي (57).

لا شك أن هذه القوة لا بأس بها في ذلك الوقت زادت من دعم الموقف العسكري للشيوخ بوعمامة والذي عزز موقفه السياسي أيضا بزيارة الوفود الرسمية له "كزيارة شخصين له حاملين اليه رسالة من سلطان القسطنطينية وحامي الحرمين الشريفين، ومن سلطان المغرب مولاي عبد العزيز ومن حاكم تافيلالت مولاي الرشيد، يعبرون له فيها عن إعتبارهم له خلفا للخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه واعترافهم به كشيخ الشيوخ للمنطقة الصحراوية".

وبذلك إطمأن الشيخ بوعمامة لنوايا السلطان المغربي فرجع الى مسقط رأسه بفيقيق خلال شهر سبتمبر 1896م، ويظهر أن هذا التقارب قد أثار قلق ومخاوف السلطات الفرنسية خاصة بعد الإعتراف به كزعيم لأولاد سيدي الشيخ وكمشرف على المنطقة الصحراوية وهو بذلك يعتبر سدا منيعا في وجه سياسة التوسع الفرنسي في الصحراء لذلك حاولت السلطات الفرنسية كسب ود الشيخ بوعمامة عله يساعدها في بسط نفوذها على الصحراء فقرر الوالي العام "لافريار" (LAFERRIERE) يوم 16 أكتوبر 1899 منح الشيخ بوعمامة الأمان التام بدون أي شرط أو قيد وذلك حتى يتمكن من إتمام مشاريعه الإستعمارية في منطقة زوزفانة وإنجاز محطة جنان - بورزق كأخر نقطة للخط الحديدي بالجنوب وهذا بعدما تلقى التعليمات اللازمة لذلك من وزارة الحربية بباريس - أركان الجيش - المكتب الرابع (60).

وبعد تبادل الرسائل بين الطرفين أعرب الوالي العام السيد "لافريار" عن رغبته في اللقاء بالشيخ بوعمامة خلال جانفي 1900 بمناسبة تشدين الخط الحديدي الرابط ما بين عين الصغراء - جنان بورزق وكذلك المحطة النهائية للقطار وذلك يوم أول فيفري 1900 (61) وقد رفض بوعمامة هذه المقابلة، ويظهر أنه لم يثق بعد في سياسة فرنسا ومازال يرتاب في نواياها المبيتة لأن همها الوحيد هو ترسيخ أقدامها في المنطقة ورغم ذلك يمكن أن نلاحظ أن الشيخ بوعمامة قد ساير سياسة فرنسا بكل حذر وحاول جس نبض السلطات الفرنسية والتقرب منها من خلال الرسائل العديدة المتبادلة بينهما.

وبعد ذلك التاريخ دخل الشيخ بوعمامة المغرب واشتغل بمشاكل وقضايا داخلية للمغرب. وانتقل الى الشمال بعمالة وجدة، مما جعل الدوائر الإستعمارية في الجزائر تتنفس الصعداء بتخلصها من أشد أعدائها الذي وقف في وجهها حوالي ربع قرن وترك لها المجال واسعا للتوغل في أعماق الصحراء.

وطيلة السنوات الباقية من حياة الشيخ بوعمامة قضاها في الجهاد تارة وفي الهدوء طورا آخر وكل ذلك تحت مراقبة ومحاصرة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "ليوتي" (lyauty). وأخيرا إلتجأ الشيخ بوعمامة الى ضواحي وجدة بعين سيدي ملوك حيث وإفته المنون في السابع من أكتوبر 1908م. (رحمه الله)، ودفن هناك وهو الى اليوم ينتظر عودة رفاته الطاهرة الى أرض الوطن لياجور زملاءه الأبطال بالعالية وماذلك بعزيز عن الجزائر.

- نتائج ثورة بوعمامة

ترتبت عن هذه الثورة عدة نتائج وحقائق يمكن إثبات بعضها في النقاط التالية:

(1) تعتبر ثورة بوعمامة من أعنف الثورات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر - بعد ثورة الأمير عبد القادر - وأطولها من 1881 الى 1908م. وبها ختمت مراحل المقاومة الشعبية في تاريخ الجزائر الجهادي، فأوقفت دور البندقية ليحل محلها أسلوب البعث الحضاري والوعي الفكري ضمن النضال السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية.

(2) - إمتازت شخصية بوعمامة في هذه المرحلة. بالشجاعة والإقدام والتحدي في مواجهة القوات الفرنسية، حيث تفتقت مواهبه الحربية، وقدراته القتالية، كالتفطن لمكائد الأعداء وتفهم العمليات العسكرية، مما جعله ينتصر على أشهر جنرالات فرنسا والمتخرجين من أكبر المدارس العسكرية فضلا عن خبراتهم الميدانية وتجاربهم الحربية، فقد هزمهم جميعا ولم يتمكنوا من القبض عليه أبدا، لهذا يحق له اليوم أن تمنحه أسماء الرتب العسكرية تقديرا لإنجازاته.

(3) - إنطلقت الثورة من الزاوية بإعتبار الشيخ بوعمامة زعيم ديني وقطب رباني إشتهر بالورع والتقوى وحب وطنه وشعبه، فكانت حركته دينية سياسية شعارها مقاومة الإحتلال تحت لواء الجهاد المقدس ورفع راية الإسلام عالية والعمل على جمع كلمة المسلمين كصف واحد لدحض الإستعمار والإستبعاد.

(4) لقد أظهرت ثورة بوعمامة تحديا كبيرا لسياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة، والتي كانت تهدف الى إتمام عمليات الإحتلال الشامل والكامل للبلاد وجعل الجزائر ولا سيما جنوبه همزة وصل للتوسع.

(5) - غلب على المرحلة الثانية من الثورة (1883م - 1908) الطابع السياسي، وطغت عنها قضية " الأمان" من خلال المراسلات والمفاوضات بين الشيخ بوعمامة والأوساط الفرنسية، وإستطاع بذلك أن يكسب الدعم المادي والمعنوي عند مختلف القبائل زادت من تقوية نفوذه ومركزه، وجعلت القوات الفرنسية عاجزه على النيل منه رغم مساعدة بعض الخونة لها.

6) لقد ترتب عن عمليات التوسع الإستعماري في الجنوب الوهراني عدة نتائج إقتصادية، معتبرة، حيث أن الحوادث خلال الثورة انجرت عنها خسائر بشرية ومادية جسيمة لما تعرضت له المنشآت الإقتصادية للمعمرين في الهضاب العليا الى تخريبات وإتلافات ذكرتها عدة وثائق أرشيفية للمصالح الإستعمارية للإثبات.

7) - عجلت الثورة بإتمام مشاريع السكة الحديدية في المنطقة وربط الشمال الغربي الجزائري بجنوبه، لأنها وسيلة سريعة للمبادلات، كما أنها تساعد قوات الإحتلال بالتحرك في التدخلات نحو الجنوب ونجدة وتدعيم الحاميات المزروعة هنا وهناك.

8) - وأخيرا يمكن إقرار الحقائق التالية وهي أن الثورة لم تحقق أهدافها، لأنها تعرضت لعدة عقبات جعلتها تتعثر وفاترة في بعض الأوقات نظرا لعدم إتحاد فرعي أولاد سيدي الشيخ وكذلك ضغوط السلطان عبد العزيز على الثورة وحصرها في الحدود.

ورغم ذلك فإن هذه الثورة قد كتبت صفحة خالدة في تاريخ المقاومة الوطنية الجزائرية ويمكن أن نقول أنها وضعت اللبنة الأولى في تشييد حرية البلاد والعباد.

الهوامش

- 1- Augustin Bernard " Bou-Amama ", Question Diplomatique et Coloniales, 5 ème Année, (1901), Tome X, p622
- 2- Bezy (Le citoyen), Insurrection du Sud-Orannais, Oran, 1881, p10
- 3- E. Graulle, Insurrection de Bou-Amama, (Avril 1881), Paris, 1905, p7.
- 4- A.M.G, H 376, Lettre de Monsieur le Préfet d'Oran, à Monsieur le Gouverneur Général Civil de l'Algérie, Oran, le 9 Avril 1881.
- 5- A.M.G, H 376, Lettre du Gouverneur Général Civil de l'Algérie, à Monsieur le Ministre de la guerre de Paris, Alger le 5 Avril 1881.
- 6- Guy de Maupassant, Au Soleil, Paris, 1902, pp 35-36
- 7- Graulle. op-cit, p9
- 8 - عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، 1881 - 1908، (جانبها العسكري 1883 - 1881، الجزائر، 1981، ص 47.
- 9- Graulle, pp. 13-14
- 10- H-M-P. De La Martinière et M. Lacroix, Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain, Tome II, Lille. 1896. p772
- 10 - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع والعشرين، قسنطينة، دار البعث، 1980، ص 248.
- 11- P. Wachi, " Notes, itinéraires et souvenirs, pour service à l'histoire de la province d'Oran, L'INSURRECTION de BOUAMAMA, (1881-1882), R.T, 1904, pp 336-337.
- 12- GRAULLE, P14
- 13- A.M.G. H 376, Rapport du Gouvernement Général Civil de l'Algérie à Monsieur le Ministre de la guerre, n : 31. Alger, le 15 Mars 1881 au sujet des garisons à placer dans les divers postes qui vont être créés dans le sud d'Algérie.
- 14- BEZY, Op-Cit, p 18
- 15- Ibid, p21

17- Graulle, Op-Cit, pp 35-41

18- Ibid, pp 42-43

19- Djillali SARL, L'INSURRECTION DE 1881-1882, ALGER, 1981, p98

20- Graulle, Op-Cit p74.

21- A.M.G., H. 376, Ordre Général du 24 Mai 1881

22- Graulle, Op-cit, p48. cf, SARL, Op-Cit, p99

23- Journal Le MOBACHER, Samedi 21 Mai 1881 N 2224

24- Boualem BESSAIH, Etendard Interdit, Paris, 1976, pp 135-138

. . هو جون - بابتيست سيرري، ولد يوم 23 سبتمبر 1820 بمدينة ليموج، إلتحق بالمدرسة متعددة التقنيات سنة 1840، وتخرج رقيب في المدفعية سنة 1842 وبعد سنتين رقي إلى رقيب أول في صفوف اللقيف الأجنبي ومنذ 20 جانفي 1850 إنضم إلى مصالح المكاتب العربية. ثم عين في مرتبة نقيب يوم 30 سبتمبر 1853 وكرس جهوده في خدمة المصالح الأهلية بالقطاع الوهراني أكثر من عشر سنوات وتنقل من بلعباس إلى تيارت ومستغانم، قائد دائرة الأغواط برتبة عقيد يوم 20 ديسمبر 1869، ثم قائد الفرقة العسكرية الوهرانية بالنيابة من 01 ديسمبر 1870 إلى 11 جوان 1871 ثم تولى قيادة الشعبة العسكرية لمعسكر من 14 أكتوبر 1871 إلى 9 جويلية 1878. وأخيرا قائد الفرقة العسكرية بوهران من 10 جويلية 1878 إلى 4 جويلية 1881 وانتهى نشاطه بالجزائر وتحول إلى فرنسا كقائد الفرق العسكرية بمونبيليه. أنظر :

Le Commandant R. PEYRONNET, Livre d'or des officiers indigènes,

1830 - 1930. Tome II, Alger, 1930, pp 296-296

25- A.M.G., H.376, Ordre Général du 24 Mai 1881

26- BEZY, Op-Cit, p52

27- A.O.M., F 89 1683 b, Etat des dommages causés à la compagnie Franco-Algérienne par l'insurrection qui a éclaté sur les hauts plateaux de la province d'Oran en Avril 1881

28- Graulle, Op-Cit. p91

29- BEZY, Op-Cit p53

. - قبائل الأغواط الأوكسل : أخذ هذا الإسم من المنطقة الجبلية ومنها جبال عمور، شمال غرب مدينة الأغواط، وهم بدو من خمسة أقسام، هم الزريفات - أولاد مومن - فرارجة - أولاد عيسى - وأولاد عمران، وبذلك يمكن أن نميزهم عن قبائل الأغواط الأرباع المرتبطين بالأغواط المعلوم.

30- Aissa MILAD. " Etude détaillée d'un poème de Mohamed Belkheir ". S.G.A d'Oran, Bulletin spécial sur le centenaire de Bou Amama, (1981-1982). pp 21-37.

31- Reviel de Mascara, N 85, 11 Septembre 1881.

32- GRAULLE, op cit, p107

هو جنرال بفرنسا، فيليكس فستاف سوسيه Felix Gustave SAUSSIER ولد سنة 1828 Thime Court سير بترويس بقصر تميكورت Saint-Cyr سنة 1850 فرقة مشاة شارك في جميع الحملات التي قامت بها الامبراطورية الثانية.

فر من موقعه ماتز Matz سنة 1870 بعد أن قاد فرقة عسكرية لوار Loire قاد حملة تونس، 1881، في سنة 1884 تم تعيينه حاكم بباريس ثم إستقال سنة 1886 وبعدها أصبح نائب رئيس مجلس الأعلى للحرب.

GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIQUE Volume 9 Paris, 1964

33- A.M.G.H 376, Lettre du général Saussier, Commandant, le 19ème corps d'Armée, à Monsieur le Ministre de la guerre, Paris, Oran, le 18 Juillet 1881.

34- A.M.G, H 376, Lettre du Général SAUSSIER, ct le XIX corps, à Monsieur Le Général DELBECQUE, ct la division d'Oran le 02 Septembre 1881

35- A.M.G.H 376

36- A.M.G.H 376, Rapport d'ensemble sur les opérations exécutées du 08 au 16 Novembre 1881.

37 - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 253.

38- A.H. MOEL, " Documents pour servir à l'histoire des hamyan ", B.S.G. Ar d'Oran, M3, 1916, pp. 18-20

39 - يحي بوغزيز: المرجع السابق، ص 255-256.

40- Le Martinière et LACROIX, Documents, Tome II, p.915

41- Boualem BESSAIH, Op-Cit, pp 123-125

42- A.O.M, 30H79, Télégramme du 10 Aout 1883

43- A.O.M, 30H79, Confirmation d'un Télégramme du 11 / 09 / 1883

44- A.O.M, 30H79,

45- A.O.M, 30H80, mAI, Juin, 1888

46- Augustin BERMARD et M. LACROIX, La pénétration saharienne, (1830 - 1906), Alger 1906, p95

47- Bul. Com Al. Fr Juin 1898, pp 200-201

48- Henri GARROT, Histoire général de l'Algérie, 1910, pp. 989-999

49- Louis RINN, " Nos frontières sahariennes ", in RA, Alger, (N° 30, 1886) pp 220-221

50- A. BERNARD et N. LACROIX, Op-Cit, p 95

51- Journal, L'Echo d'Oran, N 6153 du 07 Juillet 1888

52- A. BERNARD et N. LACROIX, Op-Cit, p 102

. . الأمان : قضية إنشغلت بها الدوائر الإستعمارية الفرنسية كثيرا خاصة مع الشيخ بوعمامة، فمنذ عهد الوالي العام "ترمان" TIRMAN سنة 1883 عرضت هذه القضية وبقيت مطروحة إلى آخر عهد الثورة. وذلك للإختلاف الحاصل في وجود النظر بين الطرفين، فالشيخ بوعمامة كان يرى في هذا الموضوع التفاوض من أجل الصلح والسلم والأمن للجميع والإحترام المتبادل داخل مناطق الطرفين، بينما ترى السلطة الفرنسية أن منح بوعمامة الأمان معناه الإستسلام لها بدون قيد أو شرط.

54- A.O.M, 30 H 80, G.G.A, Note relative à l'AMAN de Bou-AMAMA

55- A.O.M, 30 H 79

56- A.O.M, 30 H 30 Lettre du Général BOITARD, Commandant la division

d'Oran, à Monsieur le Gouverneur général de l'Algérie. Oran, le 20 Mars 1895

57- A.O.M, 30 H 79, Composition des Campements de Bou-Amama

58- A.O.M, 30 H 79, Plan des Campements de Bou-Amama à Aoudj-Tahtani

59 - عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة، 1881-1908، الجزء الثاني الجزائر، 1983، ص21.

60- A.O.M, 30 H 80, note relative à l'AMAN de Bou-Amama

61- A.M.G, 1 h 1025, Note pour la section d'Afrique, Paris, le 27 Juillet 1898

62- Bul. Com. Af, F, Janvier 1901, p14